

إستراتيجية التفكيك ومفهوم الاختلاف من الأحادية إلى التعددية

د. محمد بلقاسم / د. محمد بكاي

قسم اللغة والأدب العربي جامعة تلمسان- الجزائر

Abstract

The attitude towards unity and unilateralism, who accompanied the metaphysical and philosophical traditions occidentals since ancient times, is a very dangerous assumption ethics when she renounced the plurality, the self and the other in existence. That's why the philosophy of difference wants to give an important place to the other in contemporary Western thought. This philosophy represented by strated known thinkers (such as Derrida, Foucault, Deleuze, Levinas, Kristeva ...) choose another path that does not glorify unilateralism in Meseure or rest against one, it's persistence on logocentrecismes of elevate our relationship with each other, and give him his right as me.

Keywords: The being, the other difference, deconstruction, otherness, ethics, post-modernity

Resumé

L'attitude vers l'unité et l'unilatéralisme, qui a accompagné les traditions métaphysiques et philosophiques occidentales depuis l'antiquité, est une hypothèse éthique très dangereuse quand elle renonçait la pluralité, le soi, et les autres dans l'existence. C'est pour ça, la philosophie de la différence veut donner un lieu important pour l'autre dans la pensée occidentale contemporaine. Cette philosophie représentée par des penseurs très connus (comme Derrida, Foucault, Deleuze, Lévinas, Kristeva...) choisissent une autre voie qui ne pas glorifie l'unilatéralisme dans la mesure ou reste contre un, c'est une persistance sur les logocentrecismes d'élever notre relation avec l'autre, et de lui donner son droit comme le moi.

Les mots clés: L'être, l'autre, la différence, la deconstruction, l'altérité, l'éthique, la post-modernité.

الملخص

شكّل النزوع الشديد نحو الوحدة والأحادية (الذي رافق التقاليد الفلسفية والميتافيزيقية الغربية منذ القدم) طرحًا أخلاقيا خطيرا بإقصائه للكثرة والهو؛ أي للآخرين في الوجود. هنا تبرز فلسفة الاختلاف الأخلاقية بجرأة وشجاعة لتعطي للغير منزلة مهمة في الفكر الغربي المعاصر. لهذا تُعدّ إتيقا فلاسفة الاختلاف (دريدا، فوكو، دولوز، ليفناس، كريستيفا..) سبيلاً مغايراً لا يمجّد الأحادية بقدر ما يقف ضدها (contre un)؛ إنه تمادي على المركزيات بإثارته لعلاقتنا مع الآخر، باستحقاقه للدرس والفحص، بأصالته إلى جانب الذات.

الكلمات المفتاحية: الذات، الآخر، الاختلاف، التفكيك، الغيرية، الإتيقا، مابعد الحداثة.

تقديم:

تنبّه فلاسفة التفكيك والاختلاف إلى مسائل مقلقة ومؤرقة لعالم إنساني يتخبط في هموم السياسة والإيديولوجيا والمذهبية، محدثين طفرات منهجية وثورات معرفية، محدّدين في أنماط الصياغة والكتابة، ومجنّدين آليات في الحفر والخلخلة. و لجوا عبر هذا التفكيك الفلسفي إلى قضايا الاختلاف من مداخل جديدة، وانتقلوا بها إلى حقول مغايرة بعيدة عن غطرسة المركزيات. وكسر هذا المنحى من التفكير الأنساق الجامدة، وعمل على تحريرها من صرامتها.

وقد شكّل النزوع الشديد نحو الوحدة والأحادية (الذي رافق التقاليد الفلسفية والميتافيزيقية الغربية منذ القدم باهتمامها بالعقل والذات أو الأنا) طرحًا أخلاقيا خطيرا بإقصائه للكثرة والهو أي للآخرين في الوجود. هنا تبرز فلسفة الاختلاف الأخلاقية بجرأة وشجاعة لتعطي للغير منزلة مهمة في الفكر الغربي المعاصر. و"لا مبالغة في

القول بأن المنحى الحفري التفكيكي شكّل أهم حدث فكري في النصف الثاني من القرن العشرين، عند من يرى ويسمع، أو يقرأ ويفهم. به تزعزعت ثوابت فكرية راسخة، وتداعت قلاع ماورائية حصينة... الأمر الذي أدّى إلى زحزحة معظم المشكلات من مطرحها، أو على الأقل إلى ما يحمل على إعادة طرحها وصياغتها¹. لهذا تُعدّ إتيقا فلاسفة الاختلاف (دريدا، فوكو، دولوز، ليفناس، كريستيفا...) سبيلاً مغايراً لا يمجّد الأحادية بقدر ما يقف ضدها (contre un)؛ إنه تمادي على المركزيات بإثارته لعلاقتنا مع الآخر، باستحقاقه للدرس والفحص، بأصالته إلى جانب الذات.

المركزية الأوروبية ووهم الأحادية:

أقدمت الميتافيزيقيا الغربية على حجب الآخر بشتى ذرائع اللوغوس وتحت مسوغات الوعي والعقل. فاهويات أو الذوات تُحتزل في ضمير الحضور "أنا" ويُنبذ الغير ويُستبعد الآخر بالمقابل؛ فالغير أو الآخر هو "كل ما ليس أنا، سواء كان قريباً مني كل القرب، أو بعيداً عني كل البعد؛ أي هو من لا يشبهني"². من هنا ترتبط مسألة إدراك "الذات" للآخر عن طريق تحيّل هذا "الآخر" بالقياس أو النسخ، والموازاة أو المحاكاة؛ فالفرادة والتفرد يظلان دائماً موسومين بإمكانية النسخ كما الأنا ستظل مصابة بالآخر، والحيّ مشدوهاً بالميت³.

إن منطق المركزية يزيح الذوات في سجن الوحدانية، ويأسر الهويات في صرح الأحادية، فهذا التمرکز تضيق للخنق وشدّ للوثاق، وتسييج يمنع من تجاوز الحدود أو التفاعل مع الغائب المفقود. هذا المنطق يعتبر أن فلسفة الخروج عن الهوية هو "ورطة وتسميم استعاري للغة-الأم أو للأصل الذي يتطابق مع الدينامية الشّاحبة للأب"⁴.

ويشترك فلاسفة التفكيك والاختلاف معا في إستراتيجية خلخلة وزحزحة هذا الإرث الفلسفي والعقلي العتيد، القائم على التسلط والتصلب، و"تروم هذه الإستراتيجية قراءة الفكر الغربي قراءة شاملة وإعادة النظر في المفاهيم التي تتأسس عليها كخطاب ميتافيزيقي [مثل الحقيقة والعقل والهوية والحضور والأصل إلخ...]. وهي عبارة عن نقد للتمركز العرقي ethnocentrisme الغربي المدعم من طرف تمركزات أخرى، مثل تمركز العقل logocentrisme وتمركز الصوت phonocentrisme وتمركز القضيب phallocentrisme"⁵.

ويأتي انتقاد فلاسفة الاختلاف للعقلانيات الغربية؛ في كونها لم تنتج لنا في مناداتها بالحرية إلاّ الحروب وويلاتها؛ فإذا "كانت السيرورة التاريخية تشهد لدى هيجل على الروح المطلق، فإن روزنتسفايغ ينطلق من الواقع التاريخي لقارة غرقت في حرب طاحنة، لكي يحاكم هذه العقلانية التي يتحدث عنها هيجل والتي لم تتورّع عن الدفاع عن الحرب وشرعنتها"⁶.

وكبديل لذلك، تسعى فلسفات التفكيك إلى تجاوز الخلاف ومنطق التخاصم والصراع بين الأمم والذوات، والاشترك في تشييد علاقة تفاهم "ومدّ جسور التواصل والتّصافي من أجل تحقيق مجموعة من التفاهات وإنجاز جملة من التشاركات قصد بناء الهوية الإنسية الكونية المؤهلة لتحمل مسؤولية المحافظة على الحياة الأرضية وتحقيق وصية الاستخلاف والائتمان والتعمير"⁷.

وهم بذلك ينتقصون المباحث الأنطولوجية التي سبقتهم في كونها غير قادرة على إدراك الغيرية وأبعادها الأخلاقية، والتعامل معها بعنف، فتزديها وتصنّفها في مصاف المهمش والغريب، وتقحمها إقحاما داخل منطق التكوين الذاتوي الداخلي. فالآخر لم يكن "سوى جزء من الذات، ليس سوى الذات وهي تنكر ذاتها، ونحيا في إنكار جزء لا يتجزأ من ذاتها، فإن استدعاء الذات للنقاش حول الذات، ومع الذات، هو

شرط العودة لكلّ اكتمال ممكن (ولو إشكاليا، ولو متناقضا)، أو لانفصال جذري معترف به"⁸.

بهذه المسلمات التي أبدتها الفكر الغربي، يظلّ الآخر قابعا في جزر المجهول أو سراً كما عبّر عنه جاك دريدا. هذا الآخر، أو ذلك الشبح الذي نتوجّس منه خيفة والذي نطلق عليه اسم "الغيرية (L'altérité)" ما هو إلاّ مغايرة للذات فقط، ما هو إلا فرع آخر عن "الأنا" وانحدار من الهوية. فما الغيرية "إلاّ الشبح المتجلي في مرآة الذات"⁹؛ وما الآخر إلاّ انعكاس الأنا وصداها، أو شبحها وظلها الذي لا يُفارقها. إن الآخر هو الشبح المرجئ أو المصير المؤجل للهوية.

الهوية والتعدّد وثقافة الاختلاف:

تأسّس تفكيكية المركزية الأوروبية على التعددية واللامحدود، أي على نسف أحادية الأنا وخلخلة مركزية الذات، هي اعتراف بالمختلف ويقين بالآخر، ودعوة مفتوحة للهويات للتعرف على الغيريات، إذ هناك تداخل وتشابك بين الهوية والغيرية بمعنى أنّ ما نحسبه أو نستبعده بوصفه الآخر، قد يكون وجهنا الآخر أو من نتمنى أن نكون مثله¹⁰.

وهذا الطرح الفكري، لا يتناول قضية الهوية وتعيينها كمبحث فلسفي خالص، بقدر ما يعتبرها ثقافة، ثقافة للاختلاف والارتباط والتعلق اللامحدود بالآخر. بعبارة أخرى، تستند فلسفة الاختلاف على التعلق المزدوج بين الهوية والاختلاف؛ "فالهوية هي بالضرورة ثقافة، لكتها ثقافة تمارس بوصفها اختلافا: اختلاف في الذات واختلاف مع الذات. وإن ثقافة لا تكون سوى تكرار للعيني وتتحجّر في التجاهل أو اللامبالاة بالآخر، وتتعامى عن الاختلاف المتصاعد داخل ذاتها، في ذاتها الأشدّ حميمية، لن تستحق اسم الثقافة، وستكون سلفا ثقافة ميتة"¹¹.

إنّ العلاقة بين الأنا والآخر لا تفصلها إلا خيوط وهمية وطيفية، هي نفسها تلك الصّلات التي تربط بين الظل وصاحبه أو الشبح وشخصه، ف"لا ينفك أحدهما عن الآخر فيما هو يصوغ مشروع حياته أو يلعب لعبته على مسرح وجوده، فلا غنى للواحد عن آخر يواجهه على أرض الواقع. أو يتخيله كأليف وشريك أو كصنو وند أو كخصم وعدو"¹². هو ما جعل جاك دريدا يُنذر من خطر استبعاد الآخر واستبعاد الذات بالمقابل، ويلجأ إلى التمثيل عن ذلك بمقولة الشبحية حيث تنعكس صور ذواتنا في الآخرين. ودريدا نفسه طيف يتعدّد بين هويات متميزة وأصوليات متصادمة ومتصادقة فيما بينها، ويتردّد وراء أقنعة متخالفة؛ إذ هو: يهودي وعربي، فرنسي وجزائري، ولا يتخلّى على واحدة من هذه الهويات المتغيرة فيما بينها. انطلاقاً من هذه الانتماءات المتعددة لفيلسوف التفكيكية، يبدّد دريدا الحُجب التي أسدلت على الآخر. فيعمل في تفكيكاته على تعرية المنظومات الثابتة للمفاهيم واليقينيات، ونسف تلك المسلمات التي أبّدت الأصول والمركزيات، ف"لا هوية ذات بُعد واحد أو وجه واحد، بل هوية مركبة لها غير وجه وتنتفتح على أكثر من عالم"¹³. هذه السمة المزدوجة الوجه تعكس بامتياز التباس الأنا بقناع الآخر أو باروكية الذات؛ أي أن الغيرية هي الوجه المغاير للهوية، أو كما يقول بختي بن عودة "مرآة تتكشف من خلالها أسطورة الهوية"¹⁴، فلا ينفصل الآخر عن الذات بل هو شبهها وشبحها أو مقلوبها ومعكوسها.

محاذير إقصاء الآخر ونبد الغير:

يعكس إقصاء الآخر أمراض الأنا وعقدّها، ويقضي على مقولة التعدّد ويوطّد الأحادية والتفرد، أي يُنكر التداول والتبادل والاعتراف بالاختلاف ويتوغّل في عنف التطابق. أو هو فلسفة عمياء لا تُبصر الأشباح التي تطوف بنا أو الأغيار التي تشبه ذواتنا.

وقد توطّدت فكرة نبذ الآخر نظرا لغيابه عن الوعي وتواريه وطيفيته. ف"الهو" في الخطاب العرفاني أمانة على الخفاء والستر، أو إشارة على الحجب والغياب. إنّ "الهو خفي جلي في الوقت ذاته، يختفي من شدة نصاعته (مثل النور الذي يبدي الأشياء، ولا يمكن رؤيته في ذاته، لأنه في ذلك هلاك البصر) ويتجلى من فرط تواريه"¹⁵.

إنّ "الآخر الغائب" كثيفُ الحضور فينا، دائم الحلول والمثول، دائم التجسد، "نزرعه في تربة نسيجنا النفسي وخلايا دماغنا ليفضي ذلك إلى مشاركة تخومه. فيكون اختلافنا معه وعنه اختلافا منه... فهو اختلافٌ يسكن منشأه هو: فنحن لا نطرد الغير لنقيم نحن كما يفعل البعض"¹⁶. هذه الكثافة الحضورية تجعل من "الآخر" أو "الغير" يتعدّر على أن يُحتزل في الهامش أو يُحتزن في الفائض، و يُعزل في سحيق المجهول ويُصنّف في "هذا الخارج" عن الذات، في ملحقاتها وهوامشها. فهو ذو بنية شبكية انعكاسية وارتدادية.

تدفع الهويات والغيريات إلى التّفهُم والإنصات رغم المتناقضات والمتغايرات والخيوط الوهمية والفواصل الطيفية، إلى التعايش والحوار. وفكرة القبول بالآخر كشبح منسوخ عنيّ أو كطيف يُشبهني "هو الهبوط إلى أعماق الذات كأرض مبدعة وليس كسطح ثابت وكسول"¹⁷.

وتُنكر فلسفة الاختلاف تملك الذات لذاتها، ويبرز وجودها في تَوْقِها للغير والرغبة في التقائه والتقرب منه والاجتماع به، إنه اتجاه صوب الخارجية. هنا تبرز فكرة اللامتناهي المتعلقة بتجربة الغيرية وبالعلاقة مع الآخر بوصفها علاقة اجتماعية تتمثل في الاصطدام مع وجود خارجي بإطلاق، لاتناهي هذا الوجود لا يمكن أن يحتوي الآخر، ويكونَ هذه الخارجية التي تظهر في المقاومة المطلقة التي يبديها الوجه ضد كل موضوعة. "إن الانفصال الجذري بين الأنا والآخر غير ممكن لأنه من المستحيل

على الأنا أن يتموضع خارج تضائفه مع الآخر، كما أن الغيرية غير ممكنة إلا إذا كان الآخر آخر بحق. إن الأنا ليس موجودا دائما مع نفسه بل يحاول أن يجدد هويته عند كل نقطة يلتقي فيها بالأغيار. إن الآخر بإطلاق هو آخر الذات ولا يمثل عددا بالنسبة لي والجماعانية التي تجعلني أقول أنت ونحن ليست مجرد جمع للأنا لأن الأنا والأنت ليس هنا أفراد لمفهوم مشترك. إن غياب عنصر هو الذي يجعل الآخر آخر والغريب هو الحر من كل تقييد وسيطرة وهو الذي يُحدث اضطرابا في الذات عند كل مقابلة"¹⁸.

لقد أعاد إيمانويل ليفناس - مثلاً- الاعتبار والأهمية المغيَّبة لكثير من المواضيع ذات الصبغة الأخلاقية والبعد الإنساني مثل الصداقة والمحبة والعتاء والتكفير عن الأخطاء والغفران وغيرها. بعبارة أخرى، لقد زوّد ليفناس علم الوجود بما ينقصه من لمسات أخلاقية ومسحات إنسانية في مناداته بإنسانية الإنسان الآخر "l'humanisme de l'autre homme". إن التمعن في الأخلاق وإثارة قضايا إنسانية هو الذي صوّب مسالك ليفناس من علم الوجود إلى فلسفة الأخلاق، من الذات والوجود (L'être) إلى الغير (L'autre)، من الأناثة إلى المجتمعية.

لذلك ناهض هذا الفيلسوف الميتافيزيقا الغربية في معناها الميتافيزيقي. هذه الأخيرة التي سَعَت جاهدة إلى دمج كل شيء ضمن دائرة المعرفة الموضوعية السببية وهمّشت بالمقابل الذات ووقعت في الخلط بين الطبيعة والفكر والتاريخ والبنية، فاهتم ليفناس بما أبقتة هذه الميتافيزيقا خارجها من مشاكل وقضايا ويتناول المواضيع التي أسقطتها من حسابها وهمشتها مثل الغيرية والجسد والوجه"¹⁹.

يُقَدِّم علم الوجود التقليدي مفاهيم عن الذوات في هيئتها الأحادية المقاومة والمُتصدية للآخر، تلك المقولات الأنطولوجية هي تركيبة لخطاب التسلّط والتمركز والقوة، وكل ذلك سيؤدي لا محالة إلى الحرب والعنف. وتلك المفاهيم المقدمة

للكائن الموجود ستجعل منه مستقلاً بذاته وراضياً كل الرضى عن ذاته عينها ما سيعزز جهله بالآخر واحتقاره ونبذه. فلن يحدث اعتراف بالغير مادام الهم الوحيد للإنسان أن يستمر في الوجود فإن ذلك يحمله حتماً على مقاومة الإنسان الآخر الذي يظهر له وكأنه غريب عنه كل الغربة ووجب تجاهله.

فَتَجَاوَزَ فلاسفة الاختلاف التقاليد الفينومينولوجية في مباحث الوعي والأنما، أو العماء الأخلاقي عند هيدجر؛ حيث "الذات لا خصال لها أو لا ذاتية لها داخل كلية الكينونة. وهو بذلك يناقض كل ميتافيزيقا التاريخ الهيكلية، التي تمثل بالنسبة إليه جوهر الكلية بامتياز، كلية تضحى بالفرد لمصلحة النظام، ولا تؤسس للأخلاق إلا ضد الفرد"²⁰.

في فلسفة الغيرية، سيلتقي الإنسان بنظيره، سيقضي دون شك على أنانية الإنسان والتفكير في ذاته دون الاعتراف بأحقية الآخر. في عملية الاعتراف هذه سيحدد بدء الوجود البشري للإنسان. ما من رية في أن هذا الكشف يكون متبوعاً بمغامرة ومخاطر كبيرة في التعرف على الآخر ومواجهته، ستكون بلا شك مجازفة مخوفة بالخطر لكن يجب القيام بها²¹.

وإتاحة الفرصة للآخر للقاء والتعارف والتحاور هي علّة لخروج الذات من عزلتها وتوحيدها. إن الغير سيتقاسم مع الذات هذا الفضاء الإنساني الرّحب؛ حيث الخير والوئام والأخلاق الطيبة، وسيُنزل الذات من وعيها وعلائها، من الأبراج العاجية التي يتمركز فيها وجود الذات وتمركزها حول نفسها.

تمنح الغيرية للوجود معان ودلالات، وتمثل مقولة الوجه مرآة عاكسة لكينونة الأنما، فيبرز الآخر وينعكس من خلال الوجه، إن "الوجه هو الهوية عينها للكائن"²²؛ إذ ينبغي على الآخر أن يحترمها ويعترف بمنزلتها من خلال تأسيس علاقة "ذات

البين" تركز على فكرة اللاتناهي من جهة مناظرة الأنا للآخر وتبادلها المسؤولية من أجل المحافظة على الحياة على الأرض²³.

كما تُبدي فلسفة الاختلاف اهتماما واضحا بالجسد والأنوثة والإروسية، لما للجسد من دور مهم في العملية التذواتية (Intersubjectivité)؛ في علاقة الذات بغيرها. فأعضاء الجسد هي خير السبل في الإبلاغ والتحاور في التعبير عن ما يرومه المرء بَعْدَ أن يعجز الإنسان واللسان وتستحيل الأقوال والأفعال ترجمة مكنون الذوات وبواطنها، يقول ليفناس: "يبدو الجسد دائما وأبدا من أجل أن يكون أكثر من كومة من المادة، إذ يمكن له أن يكون أكثر كثيرا وأقل قليلا من مجموعة أجزائه... الوجه والعينين بوصفها مرايا الرُّوح هي أعضاء التَّعبير بامتياز. لكن روحانية الجسد لا تقطن قدرته على التعبير عن الداخل. الجسد لا يُعبّر عن الحدث إنَّه هو نفسه هذا الحدث"²⁴.

الغيرية وتجليها في التخاطب:

إن الانخراط في عملية الحوار والمحادثة مع الآخر ستهمل مسألة وجود كل واحد من الطرفين على جهة. ذلك الانخراط هو ارتقاء في الكلي ومغامرة لاكتشاف اللانهائي؛ ف"أَنْ تتكلّم هو، في الوقت ذاته، أَنْ تتعرّف على الآخر وأن تعرّفه بذاتك [...] هذا التعاطي الذي يتطلّبه الكلام هو بالتحديد العمل بدون عنف"²⁵.

ويقضي الحوار الشفاف والعقلاني بين المتحاورين على كل شكل من أشكال الانغلاق والاكتفاء بمخزوننا ومعتقداتنا الماضوية البالية، أو كما يقول ليفناس: "اختراق قوقعة العزلة هو وحده الذي يسمح لنا بالنفاذ إلى آخر الوجود بطريقة مغايرة عنه"²⁶. وسيشرع أبواب الأنا الموصدة عن طريق اللغة والحوارية نحو الوجود مع الآخر ومشاركته همومه وتطلعاته.

فمع دخولنا في محادثة مع الآخر تكون الذات قد تحرّرت من عقالها وانفتحت على كل غريب ومختلف عنها. إن اللغة من خلال أقوالنا وتداولاتنا مع الآخر تُحدّث انقلابا آخر داخل الذات. عندما يتحدّث موجودان سيبدأ التبادل في لحظة معينة وينطرح بطريقة مستقيمة ثم يتوقف. حيث يتعلق "زمن التبادل بالحاضر من أجل المستقبل؛ أين ينكشف المعنى تدريجيا، إذ يشهد القول على الزمن بشكل مغاير عندما يمزق الإيقاع الخطي للقائل"²⁷.

تجعل اللغة (وهي وساطة بين الأنا والآخر) العلاقة بين المتحاورين ممكنة وتسمح بتبادل المعارف والمعلومات بينهم وتحقق التواصل بين جميع الفرقاء؛ لأنه حتى في حالة اندلاع النزاع والصراع بين مجموعة من الأطراف فإن اللغة تظل في قلب الأحداث وتبقى الوسيلة الوحيدة لإجراء مفاوضات للخروج بتسويات ظرفية وتوفيقات واتفاقات مرضية لكل الأطراف. "يمكن أن نسمي حوارا هذه المقابلة التي يدخل عبرها المتحاورون إلى فكر الآخرين حيث يعطون للحوار قيمة. ويمكن أن نسمي اجتماعية وحدة أشكال الوعي المتعددة الداخلة في عين الفكر"²⁸.

تتجلى المسؤولية الأخلاقية لسانيا في الخطاب والحوار بين الهويات والغيريات؛ فالتخاطب مع الآخر يستلزم مني الاستجابة لندائه في التواصل معي. "إن الحوار يُخرج المرء من وحدته الصّماء الفارغة؛ أي من أنانته ويقحمه ضمن الكلية التي هي نتيجة إجماع المتحاورين على الحقيقة وهي ليست تطابق بين العقل والواقع بل رفع المتحاورين للغطاء عن أسرار الواقع لرؤية وجهه الحقيقي طالما أن العلاقة أنا-أنت هي مكان حدوث الإتيقا وطالما أنّ الأنا أثناء مقابلتها بالآخر تأخذ بعين الاعتبار الكل أو تطمح إلى أن تتكلم باسم الكل ولا تكتفي بالكلام عن الفردي الجزئي"²⁹.

يتعدّى تبادل أطراف الحديث تبادل المعارف ليحقق الغرض التداولي والتفاعلي بغاية إحلال السلام والمحبة والعدالة بين "الأنا والأنت" بتقديم الحجج

وإرساء النقاش الهادئ والمثمر الخالي من الجدل والمشادات الكلامية. إن الحوار والتخاطب لكفيلان بعقلنة البشر والحدّ من نزاعاتهم، وما يحمله الفعل الكلامي من بعد إتيقي سيكون كفيلا لا محالة من كبح الأهواء التسلطية والعدوانية للذات تجاه الآخر. ففي الحوار يتحقّق انجذاب نحو الآخر "لأن هذا الشخص الذي يكلمني لا أفكر فيه كما هو بل أتحدث إليه فهو مشارك لي في علاقة تجعلني حاضرا دائما وأبدا بالنسبة إليه وتجعله حاضرا دائما بالنسبة إلي ومن هنا ينشأ الاحترام والاعتراف المتبادل"³⁰.

يتحمّل الإنسان مسؤولية خطابه وكلامه. والكلام يعني في اللغة الجروح التي تحدث من أثر الأقوال مثل تلك التي تحدث من جرّاء الأفعال. فللكلمات والخطاب آثار على الآخر، لذا علينا تحمّل المسؤولية كاملة والالتزام في أقوالنا ومراعاة الآخر وحمايته؛ وعليه فقد شدّد ليفناس على الأهمية الأخلاقية للكلام وتوظيفها لصالح الخير والطيبة واللاعنف، يقول في هذا الشأن: "العقل والكلام هما خارج العنف. إنهما النظام الروحي. وإذا كان على الأخلاقية أن تنبذ العنف، فيجب أن يكون هناك رابط عميق ما بين العقل والكلام والأخلاق"³¹. إذن، يتوجب علينا في كلامنا التعقل وتجنب العنف ومراعاة الأخلاق للولوج في علاقتنا بالغير.

وفي إطار حديثه عن العلاقة الأخلاقية التي تربطنا بالآخر، وجب الالتزام بإعطاء أهمية للغير وعدم قهره أو نهره و محاولة الهيمنة أو التعدي عليه، فوجب إخلاء العلاقة مع الآخر من كل إزاحة أو غطوسة قد تشوبها. بعبارة أخرى، على العلاقة أن تأخذ شكل "أنا - أنت" بدل "أنا - هو". أي اعتراف بدل تهميش الغيرية وتغييبها ونبذها. عملية الاعتراف هذه ستكون حبلية بمعاني الخروج من الترجسية والأنانية التي لا طائل من ورائها بدون الآخر، ففي الكلام سيّقبل الأنا نحو الآخر ويشرع في خطابه قائلا له "أنت" بدل البداية في الحديث عن الأنا. ف" أن نتحدث مع الآخر

هو في الوقت ذاته أن نعرف الآخر ونجعله يعرفنا، فالآخر هنا ليس فقط معروفا بل وأيضا مُرَجَّباً به، ليس فقط مسمى بل وأيضا مدعو من طرفنا. أنا لا أفكر في كل ما هو بالنسبة إليّ فقط بل وأيضا وفي الآن نفسه أفكر في كل ما هو بالنسبة إليه"³².

إن نبذ كلام الآخر أو التقليل من شأنه هو انتفاء للأخلاق. وهذا الانتفاء شبيه بتحطيم وجه الإنسان أو قتله حتى، ففي القتل ستكون هناك مشاعر ضارية تريد إسكات الآخر بشتى السبل ودحره بمختلف الطرائق. لذلك نجد ليفناس داعيا للحوار وللتخاطب السلمي مهما حدث الخلاف ومهما كانت درجات الاختلاف. رفض القتل والتصدي للتعصب يكون بالولوج في دوائر الحوار واحتضان الآخر و الدخول في علاقة اعتراف وائتلاف معه. على أن تأخذ تلك العلاقة موضع المسؤولية على محمل الجد.

خاتمة:

رفضت المركزية الأوروبية المثقلة بالسلطة حق الآخر في أن تكون له حقائق، فأعلنتها حربا على الآخر، لأنها تمتلك الحقيقة والمفاهيم، "إن الحرب سطوة المفهوم بامتياز. وسلطة الحقيقة ومنطقها لا تختلف عن سلطة أي شكل من أشكال الدوغما، لأنها ترفض حق الآخر في أن تكون له حقيقة أخرى، فيما وراء الحقيقة"³³.

من هنا نُعدّ إستراتيجية التفكيك، تغييراً للسائد في عصر التيارات الفلسفية الكبرى كالبنوية والفينومينولوجيا والماركسية وغيرها، وأنتجت لنا هذه الإزاحات خطاب التعدّد والاختلاف، والتطرق إلى مباحث الآخريّة أو الغيرية. نقدًا منها للمركزيات العقلية المبجّلة للوعي والذات، التي ما فتئت تعمل على إقصاء الآخر واستبعاده. بعبارة أخرى إن الإزاحة والحفر والتفكيك هي السبل المثلى للتّماهي على الفلسفات المتمركزة على الذات دون غيرها.

ومشروع هذه الاستراتيجيات التفكيرية شاسع المباحث وكثيف الدلالات، يلامس قضايا إتيقية مثيرة تستحق العناية، تتمثل في إدراكه للمواضيع ذات الصلة بالواقع الإنساني في لحظاته الحرجة ووقائعه المتأزمة، وهي قضايا مُتعلّقة بالسّلم والعدل مقابل الحرب والظلم، هي فلسفة اللاّعنف التي نافح عنها هؤلاء الفلاسفة بحرارة شديدة. فالوئام والسلام أو العدل والعدالة بالنسبة لهم هي كل الحكمة والأخلاق وهي أعلى بكثير من مباحث الفلسفة.

الهوامش:

- ¹ - علي حرب، الممنوع والممتنع: نقد الذات المفكّرة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، وبيروت، لبنان، ط4، 2005، ص: 24.
- ² - علي حرب، "الأختام الأصولية والشعائر التقدمية: مصائر المشروع الثقافي العربي"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، وبيروت، لبنان، ط1، 2001، ص: 50.
- ³ - صفاء فتحي، "من الفكرة إلى الشبح"، مجلة "أوان"، جامعة البحرين، العدد 4/3، 2003، ص: 80.
- ⁴ - بختي بن عودة، "زنين الحداثة"، منشورات الاختلاف، و وزارة الاتصال والثقافة، الجزائر، ط1، 1999، ص: 183.
- ⁵ - جاك دريدا، إستراتيجية تفكيك الميتافيزيقا: حول الجامعة والسلطة والعنف والعقل والجنون والاختلاف والترجمة واللغة، ترجمة وتقديم: د. عز الدين الخطابي، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2013، ص: 06.
- ⁶ - رشيد بوطيب، "نقد الحرية أو التاريخ المنسي للتفكيرية"، في كتاب "جاك دريدا: ما الآن؟ ماذا عن غد؟ الحدث، التفكير، الخطاب"، إشراف: محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف، الجزائر، ودار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص: 305 و306.
- ⁷ - زهير خويلدي، "فيلسوف الغيرية: الأنا والآخر وجهًا لوجه"، جريدة العرب الأسبوعي، لندن، ع 2007/12/15، ص: 10.
- ⁸ - لغات وتفكيكات في الثقافة العربية، لقاء الرباط مع جاك دريدا، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، ص: 64.
- ⁹ - محمد شوقي الزين، "الإزاحة والاحتمال: صفائح نقدية في الفلسفة الغربية"، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2008، ص: 201.
- ¹⁰ - علي حرب، "الأختام الأصولية والشعائر التقدمية: مصائر المشروع الثقافي العربي"، ص: 43.
- ¹¹ - لغات وتفكيكات في الثقافة العربية، لقاء الرباط مع جاك دريدا، ص: 41.
- ¹² - علي حرب، "الأختام الأصولية والشعائر التقدمية"، ص: 53.

- ¹³ - علي حرب، "المنوع والممتنع: نقد الذات المفكرة"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط4، 2005، ص: 106.
- ¹⁴ - بختي بن عودة، "رنين الحداثة"، ص: 164.
- ¹⁵ - محمد شوقي الزين، "الإزاحة والاحتمال"، ص: 201.
- ¹⁶ - عبد العزيز بن عرفة، "الدال والاسبتدال"، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط1، 1993، ص: 17.
- ¹⁷ - بختي بن عودة، "رنين الحداثة"، ص: 79.
- ¹⁸ - زهير خويلدي، "فيلسوف الغيرية: الأنا والآخر وجهًا لوجه"، ص: 11.
- ¹⁹ - زهير خويلدي، "فيلسوف الغيرية: الأنا والآخر وجهًا لوجه"، ص: 10.
- ²⁰ - رشيد بوطيب، نقد الحرية أو التاريخ المنسي للتفكيكية، ص: 305.
- ²¹ - Emmanuel Lévinas, Autrement qu'être ou au-delà de l'essence, Paris, Le Livre de Poche, Biblio-essais, p. 190.
- ²² - Emmanuel Lévinas, Entre nous Essais sur le penser-à-l'autre, Paris, Grasset, 1991, p43- P44.
- ²³ - زهير خويلدي، "فيلسوف الغيرية: الأنا والآخر وجهًا لوجه"، ص: 10.
- ²⁴ - Emmanuel Lévinas, De l'Existence à l'Existant, Bibliothèque des Textes Philosophiques – Poche , 1993, p117- p124.
- ²⁵ - Emmanuel Lévinas, Difficile liberté, Paris, Le Livre de Poche, Biblio-essais, 1990, p. 21.
- ²⁶ - Emmanuel Lévinas, Autrement qu'être ou au-delà de l'essence, op.cit, p13.
- ²⁷ - زهير خويلدي، "فيلسوف الغيرية: الأنا والآخر وجهًا لوجه"، ص: 11.
- ²⁸ - Emmanuel Lévinas, De Dieu qui vient à l'idée, Bibliothèque des Textes Philosophiques – Poche , 1998 p216-p217.
- ²⁹ - زهير خويلدي، "فيلسوف الغيرية: الأنا والآخر وجهًا لوجه"، ص: 11.
- ³⁰ - المرجع نفسه، ص: 11.
- ³¹ - Emmanuel Lévinas, Difficile liberté, Paris, Le Livre de Poche, Biblio-essais, 1990, p. 19.
- ³² - Ibid, p19- 20.
- ³³ - رشيد بوطيب، نقد الحرية أو التاريخ المنسي للتفكيكية، في كتاب "جاك دريدا" 304.